الدرس السادس: كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني قضية "النظم"

بلغ العرب في الجاهلية والإسلام مرتبة رفيعة من الفصاحة والبلاغة وسحر البيان، وبرزت في شعرهم ونثرهم. لذلك كانت الفصاحة والبلاغة وحسن البيان معجزة الرسول الكريم وحجته، إذ دعاهم لمعارضة القرآن والإتيان بآية منه فعجزوا، مما جعل النقاد يخوضون في قضية الإعجاز ومنهم عبد القاهر الجرجاني في كتابه القيم "دلائل الإعجاز".

1. نبذة عن الكاتب

هو أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، عالم لغوي وناقد من أصول فارسية، الجرجاني الدار، لم تذكر له المصادر سنة مولده، ولكنه من مواليد القرن الخامس الهجري، برع في علوم عدة منها: الفقه، الشعر، النحو، والبلاغة، من أهم أساتذته: الشيخ أبو الحسين محمد الفارسي، اختلف في سنة وفاته، فقيل: 471ه، وقيل: 474ه.

من مؤلفاته:

أ. المغني في شرح الإيضاح
ب. المقتصد في شرح الإيضاح
ت. إعجاز القرآن الكبير
ث. إعجاز القرآن الصغير
ج. أسرار البلاغة

2. نبذة عن الكتاب

يعد كتاب دلائل الإعجاز من أهم الكتب التي ألفت في اللغة العربية في القرن الخامس، ذكر عبد القاهر سبب تأليف كتابه، وأنه أراد أن يصحح لمجموعة من القضايا التي طرحت في عصره، والتي دار فيها الجدل منها: الفصاحة، البيان، الإعجاز... وأن يرد عليهم بالحجج اللغوية، والعقلية. قدم لكتابه بمقدمة أرسى فيها علم أصول النحو، وأجمل علم النحو كله. وخمسة فصول: النظم، المعاني النحوية، الإعجاز القرآني، الصور البلاغية، الفصاحة، وخاتمة.

3. القضايا التي تناولها الكتاب

1. من القضايا التي طرحها الجرجاني قضية شرف العلم، فضله وأثره، ليخص بالذكر شرف علم البيان بعد ذلك لأنه يتوصل به إلى إعجاز كلام الله.
2. تحدث عبد القاهر الجرجاني عن قضية الإعجاز، ورد على كل فرقة بالحجج، فرد على الذين جعلوا القرآن معجز في تضمنه أخبارا عن الماضي، أن هناك سور لا تحوي أخبارا عن الماضي، فهل هذا يدل على أن هذه السور ليست معجزة. وهناك فرقة رأت أن الإعجاز يكمن في إخباره عن الغيب، فرد عليهم بأن أخبار الغيب لا توجد أيضا في جميع السور. أما المعتزلة فرأوا أن القرآن معجز بالصرفة، أي أن العرب كانوا قادرين على الإتيان به ولكن الله صرفهم، فرد عليهم أنه إذا صرف الله قريشا عن الإتيان به، فما بال الأقوام الأخرى، ومن أتى بعدهم.

3. قضية النظم

أ. تعريف النظم

1. لغة

جاء في الصحاح "نظمت اللؤلؤ، أي جمعته في السلك"، والنظام الاتساق، والنظم التأليف.

2. اصطلاحا

هو تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض.

ب. النظم عند الجرجاني

لم يكن الجرجاني أول من اهتم بالنظم، بل إن الاهتمام به قديم، فنجده عند سيبويه، وابن قتيبة...وغيرهم. إلا أن الجرجاني قصد بالنظم العلاقات النحوية التي تبني بها الكلمات لتدل بها على المعنى.

ناقش الجرجاني قضية إعجاز القرآن، ورأى أن الإعجاز لا يكون في الكلمة المفردة أي في الألفاظ لأن هذه الألفاظ هي نفسها ألفاظ العرب التي نزل بها القرآن، وإنما تكتسب اللفظة قيمتها بموقعها من الكلام، ولا في معاني الكلم المفرد، وإنما في ضم الألفاظ على طريقة مخصوصة، أو ما ينشأ بين اللفظ والمعنى من علاقات لغوية دقيقة، وأن هذه العلاقة هي التي يتفاوت فيها أديب عن أديب، ويعلو بها شاعر عن شاعر، لذلك عد اللفظ جسدا والمعنى روحا.

فقد شن هجوما على أنصار اللفظ وحده، وعلى أنصار المعنى وحده، ورد عليهم بحجج وزيف أقوالهم، لذلك رأى المزية في اللفظ والمعنى يقول:"ما في اللفظ لولا المعنى؟، وهل الكلام إلا بمعناه"، فهو لا يعد شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا، أو اشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر. بل توصل عبد القاهر الجرجاني إلى معنى المعنى، فقال أن الكلام على ضربين، ضرب تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، مثلا تقول خرج زيد، وضرب آخر لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. فمثلا قولك: كثير الرماد، فأنت لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك معنى ثانيا "أنه كريم" الذي هو غرضك.

ت. أسس نظرية النظم عند الجرجاني

قامت نظرية النظم عند الجرجاني على أسس منها:

1. الترابط النحوي
2. المناسبة بين المعاني والألفاظ
3. مراعاة السياق
4. التأثير على المتلقي

في الأخير يمكن القول أن عبد القاهر الجرجاني جمع شتات آراء سابقيه في قضية اللفظ والمعنى منذ عصر الجاحظ أو قبل ذلك، ليخرج لنا بنظرية النظم، هذه الأخيرة التي ارتبطت بقضية خطيرة هي قضية إعجاز القرآن، وأن الإعجاز لا يكمن في الكلمات المفردة أو المعاني المجردة، بل في كيفية تنظيم الكلمات وتركيب الجمل.